

وأما بنعمة ربك فحدث

قال تعالى فى سورة الضحى: [ألم يجدك يتيما فأوى - ووجدك ضالا فهدى - ووجدك عائلا فأغنى] ثم قال [فأما اليتيم فلا تقهر - وأما السائل فلا تنهر - وأما بنعمة ربك فحدث] والآيات رغم قصرها فإنه يبدو لى أنها تحمل كما كبيرا من المعانى والقيم وفوائد لغوية عديدة تحتاج كثيرا من التأمل. وأود التأمل فى ثلاثة مسائل: الأولى التناسب بين الآيات الثلاثة الأولى والثلاثة الآخرة ومعناها، والثانية ترتيب الآيات الثلاثة الأولى، والثالثة ترتيب الآيات الثلاثة الآخرة.

والتناسب ظاهر وواضح بين الآيتين [ألم يجدك يتيما فأوى] و [فأما اليتيم فلا تقهر] وأمىل إلى التناسب المقلوب فى الآيتين الأخرى وهو ما مال إليه الزمخشرى رحمه الله ووصفه الشيخ ابن عاشور رحمه الله بأسلوب بلاغى يسمى اللف والنشر المشوش، وهو مناسبة [وأما السائل فلا تنهر] ل [ووجدك عائلا فأغنى] ومناسبة [وأما بنعمة ربك فحدث] ل [ووجدك ضالا فهدى] فإذا كانت [وأما السائل فلا تنهر] تناسب [ووجدك عائلا فأغنى] يكون السائل هو الفقير، أى السائل عن المال أو الطعام وهو أقرب من أن يكون السائل عن الدين إذا كانت تناسب مثلتها فى الترتيب [ووجدك ضالا فهدى] لسببين، الأول أن الإنسان غالبا يضيق بمن يسأله عن المال والطعام وليس بمن يسأله عن الدين ولذا نهى الله عن نهره، والثانى أن الجمع بين اليتيم والمسكين جاء فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم مثل [أرأيت الذى يكذب بالدين - فذلك الذى يدع اليتيم - ولا يحض على طعام المسكين] و [كلا بل لا تكرمون اليتيم - ولا تحاضون على طعام المسكين] وربما تشمل السائل المعنى الآخر أيضا وهو السؤال عن الدين فتكون مناسبة لكلا الآيتين [ووجدك ضالا فهدى - ووجدك عائلا فأغنى]. وكذلك فإن [وأما بنعمة ربك فحدث] تبدو مناسبة ل [ووجدك ضالا فهدى] لأنهما الآيتان المتبقيتان، وكذلك لأن التحديث بالنعمة لا يفيد الفقير ولذلك لا تبدو [وأما بنعمة ربك فحدث] مناسبة ل [ووجدك عائلا فأغنى].

ومن هنا نتأمل فى معنى [وأما بنعمة ربك فحدث] وكثير من المفسرين يفسرها ب: وأما بنعمة ربك عليك فحدث، وأجده غريبا، فأن يحدث الرسول بالنعمة الخاصة التى أنعمها الله عليه ليس واضحا فائدته، وليس له مثل فى باقى آيات القرآن الكريم، وإنما يبدو لى أن التقدير هو: وأما بنعمة ربك على الناس فحدث، وقال بمثل هذا الزمخشرى رحمه الله فالنعمة قد يكون مقصودا بها الإسلام أو القرآن أو نعم الله العامة من سماء وأرض وشمس وقمر وبحار وأنهار وعقل وقلب وأنعام وما إلى ذلك، وقد يكون مقصودا به كل ذلك، تأكيدا لمناسبة الآية ل [ووجدك ضالا فهدى]، فتذكير الناس بنعم الله وتحديثهم بتعاليم الإسلام والقرآن قد يكون سببا لهديتهم، وهو منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله، مثل قوله تعالى على لسان رسوله نوح عليه الصلاة والسلام [ما لكم لا ترجون لله وقارا - وقد خلقكم أطوارا - ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا - وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا - والله أنبتكم من الأرض نباتا - ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا - والله جعل لكم الأرض بساطا - لتسلكوا منها سبلا فجاجا].

وما سبق من تناول لمعنى الآية افترض أن "بنعمة ربك" هي المفعول الثانى ل "حدث" أى: حدثهم بنعمة ربك، ولكن قد يكون المفعول الثانى محذوفاً و "بنعمة ربك" حال، أى: حدثهم بالقرآن وذلك من نعمة ربك عليهم، فتحمل ذلك نفس معناها فى الوجه الراجح من تفسير "ما أنت بنعمة ربك بمجنون".

وينبغى هنا ألا نغفل لماذا قال كثير من المفسرين أن المعنى: وأما بنعمة ربك عليك فحدث، ويبدو أن السبب هو وجود كاف الخطاب فى [ربك] وإن كانت لا تعنى "عليك" فإن لها دلالة، لأن لكل حرف وكلمة فى القرآن دلالة، فرأوا أن دلالتها "عليك" ويبدو لى أن دلالتها مختلفة وقد تكون: ربك الذى أرسلك أو ربك الذى هداك، ومثل ذلك قول الشيخ طنطاوى رحمه الله فى [ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل] أى: ربك الذى يرعاك وسينصرك.

وأجد فى الآية ملمحا آخر، وهو حذف كلمة "الضال" والتقدير: وأما الضال فحدثه، وقد يكون ذلك لأن الرسول يحدث الضال ليهتدى، والمهتدى ليزداد هدى، والذى فى قلبه مرض ليكون الحديث حجة عليه، فهو لا يحدث الضال فقط، وقد يكون أيضا تنبيها على أدب من آداب الدعوة وهو عدم وصف الناس بالضلال، وإنما الإتيان بجوهر الحديث مباشرة من باب الحكمة وحسن الموعظة.

وأما المسألة الثانية فهى ترتيب الآيات الثلاثة الأولى، ويبدو أنه متعلق بالعمر، فأشد ما يحتاج إليه الطفل هو المأوى، فإن صار شابا احتاج إلى الهداية وتعلم الدين أيضا، فإن صار رجلا احتاج إلى المال كذلك ليعول أهل بيته.

وأما المسألة الثالثة فهى ترتيب الآيات الثلاثة الآخرة، وفيها تأخير "وأما بنعمة ربك فحدث" مما سبب التناسب المقلوب الذى ذكرته سابقا، ويبدو أن هذا التأخير سببه أولوية الانشغال بالعمل الصالح عن الدعوة إليه، فإذا انشغل جميع المسلمين بالدعوة إلى العمل الصالح فمن يعمل؟ واقترب العمل الصالح بالإيمان فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم، وإن من لا يستطيع كف الناس عن شره ينبغى أن يكف أيضا عن الدعوة حتى لا يفتن الناس، وأن يحاسب نفسه ويتدبر مراد الله منه فى قرآنه.

والله تعالى أعلم

أمين علام 12 يوليو 2014